

محاضرات مقياس الأدب الشعبي الجزائري

السنة الثانية ماستر أدب جزائري

الأستاذ: رشيد جقريف

المحاضرة 07: المثل الشعبي الجزائري

1/ مقدمة:

لعب المثل الشعبي دورا كبيرا في الثقافة الشعبية الجزائرية منذ القديم ولازال بوصفه من أكثر أنواع الأدب الشعبي استعمالا وجريانا على السنة العامة والخاصة، ومن أقدر أنواع الأدب الشعبي إيصالا للفكرة وتوجيها للسلوك وتقييما للأحداث والمواقف وهو بذلك محصلة تجارب عديدة عاشها الإنسان الجزائري، وجذور المثل الشعبي الجزائري لها وشائج وامتدادات واضحة مع نظيرتها العربية الفصيحة من جهة أو بقرينتها الشعبية لدى المجتمعات المغاربية والعربية وهذا ما يوضح علاقات التشابه والتماثل بينها.

2/ جمع ودراسة الأمثال الشعبية في الجزائر

2-أ/ مصنف محمد بن شنب:

وهو أقدم مصنف جمع فيه محمد بن شنب الأمثال الشعبية الجزائرية في مستهل القرن العشرين، احتوى مصنف ابن شنب على 3127 مادة مثلية تم تسجيلها في لغتها الأصلية، وفي تنوعها التعبيري المتوفر، مرتبة وفق التسلسل الأبجدي لحروفها الأولى، مترجمة إلى اللغة الفرنسية، وموثقة من حيث مصادرها، مشروحة من طرف المصنف، ومعلق عليها، يمثل المصنف ثروة لغوية هامة يعتمد عليها الدارسون في التعرف على اللغة العربية الدارجة المستعملة في حواضر البلدان المغاربية خاصة في النصف الأول من القرن العشرين.¹

2-ب/ مصنف عبد الحميد بن هدوقة:

جاء هذا المصنف مرتبا ترتيبا أبجديا توخى فيه مؤلفه جمع أكبر قدر من الأمثال المتداولة في قرية الحمراء غرب مدينة سطيف، وهي القرية التي نشأ فيها الكاتب، اعتمد ابن هدوقة

في تسجيل الأمثال على ذاكرته وعلى ما أمده به بعض حملة التراث من السكان المقيمين بالقرية في فترة عملية التدوين. يقول عن المنهج الذي اتبعه في وضع مصنفه: «أوردت المثل وذكرت السياق الذي يقال فيه، ولاحظت مدلوله الأخلاقي والاجتماعي كلما بدا ذلك ضروريا، ثم أتيت بمثل، أو أمثال مشابهة له، أو أشعار تؤيد رؤية صاحب المثل، وتبين اشتراكه مع غيره في تلك الرؤية خاتما الشرح والتعليق بالجانب اللغوي، عندما أرى ذلك مناسبا، أو ضروريا، كما لم أغفل القصص التي تتعلق بالأمثال سواء لأهميتها الاجتماعية أو الحضارية، أم لطرافة أسلوبها، إذا كانت من القصص القديمة، والغرض من ذلك هو إعطاء الكتاب صبغة أدبية تحبب القارئ في مطالعته، وتمكنه من الدخول إلى عالم الأدب الشعبي والأدب العربي القديم»

يكشف مصنف عبد الحميد بن هذوقة المشتمل على حوالي 640 مثلا مصنف ومفهرسة ومشروحة ومعلق عليها من معرفة موسوعية يتمتع بها المؤلف مكنته من رد كثير من الأمثال إلى أصولها في التراث العربي الإسلامي وإلى ما يشبهها في الثقافة الشعبية المغاربية في مناطق أخرى، سواء تعلق ذلك بالعبارات المثالية أو بأشكال تعبيرية أخرى، مثل الشعر والأخبار والنوادر. إلى جانب ذلك اعتنى المؤلف بالبعد التداولي للأمثال، وبسياقاتها التعبيرية وبتحولاتها الدلالية، وبطبيعتها المعجمية.²

2-ج/ مصنف قادة بوتارن:

يحتوي هذا المصنف على حوالي 1010 مثل، ويختلف عن المصنفين السابقين في طريقة التبويب إذ نجد صاحبه يعتمد على تصنيف المادة المثالية وفق الموضوعات فيخص لكل حقل دلالي بابا يورد فيه الأمثال التي تداولها الناس في منطقة الجنوب الغربي، وقد جاءت مرتبة في ستة أجزاء يحتوي كل جزء على مجموعة أبواب كالاتي: الجزء الأول: ويحمل عنوان «الحياة ونواميسها» ويضم الحقوق الدلالية الآتية: (1) القضاء والقدر، (2) تصارييف الدهر والعناية الإلهية، (3) الحيرة والشك والقلق، (4) المظاهر الخداعة، (5) الزمان والصبر. الجزء الثاني: ويحمل عنوان «العلاقات الاجتماعية» ويضم الحقول الدلالية الآتية: (1) شريعة الأقوياء، (2) الوفاء، (3) الصداقة، (4) الفعالية، (5) اليقظة والحذر واللامبالاة، (6) عرفان الجميل ونكرانه... وهكذا حتى تتم بقية الأجزاء والأبواب في ترتيب وتسلسل مدروس.

لقد بذل صاحب هذا التصنيف جهداً في سبيل توزيع الأمثال وفق الحقول الدلالية المشار إليها، وهي طريقة في التصنيف قد تنفع الناس والدارسين المتخصصين في الدراسات الاجتماعية بهدف تيسير الرجوع للأمثال التي يمكن أن يجد فيها الدارس بغيته في مجال بحثه غير أنها قد تؤدي أحياناً إلى التردد في وضع المثل في الحقل الدلالي المناسب بسبب تعدد معانيه وانتمائه المشترك لعدة حقول دلالية، مما يضعف من قيمة هذه الطريقة في التوزيع ويقلل من جدواها.

كما سعى صاحب المصنف إلى معالجة الأمثال التي لم ترد في مصنفات منشورة قبله، وإذا ما كانت هناك صيغة ثانية للمثل الذي يذكره يشير إلى ذلك ويعين صاحب المصنف المعني. يعتني كثيراً بشرح المثل شرحاً موجزاً.³

مفهوم المثل الشعبي:

1/ لغة: المثل لغة هو الشبيه والنظير والعبرة والآية. جاء في لسان العرب: «والمثل الحديث نفسه (...) والمثل الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً فيجعل مثله»

«ويكون المثل بمعنى العبرة ومنه قوله عز وجل: «فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين» (الزخرف) فمعنى السلف أنا جعلناهم متقدمين يتعظ بهم الغابرون ومعنى قوله ومثلاً أي عبرة يعتبر بها المتأخرون ويكون المثل بمعنى الآية قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام على نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام: «وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل» أي آية تدل على نبوته»

2/ اصطلاحاً: فهو قول شعبي مأثور يمثل خلاصة تجارب حياتية ومحصلة خبرات إنسانية (شعبية فردية أو جماعية) يتميز بإيجاز اللفظ وإصابة المعنى وجودة الكناية وهو كالعملة ذات الوجهين، وجه يحيل على الحادثة الأولى التي قيل فيها المثل الأول مرة (المورد) وآخر يحيل على الحادثة الثانية المشابهة والتي يعاد فيها ضرب ذلك المثل (المضرب).⁴

1-2/ مفهوم المثل عند القدماء:

* يعرفه أبو عبيدة القاسم بن سلام الجمحي بقوله «حكمة العرب في الجاهلية والإسلام وبها كانت تعارض كلامها فتبَلَّغ بها ما حاولت من حاجتها بكناية غير تصريح فتجمع بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه».

* يعرفه عبد الله بن المقفع بقوله: «إذا جعل الكلام مثلاً كان أوسع للنطق وأنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث».

* يعرفه إبراهيم النظام بقوله: «يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى، حسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة»

* يعرفه محمد بن عبد ربه في كتابه "العقد الفريد" قال عن الأمثال «هي وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني والتي تخيرتها العرب وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان وعلى كل لسان، فهي أبقي من الشعر وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها ولا عم عمومها حتى قيل أسير من مثل»⁵

2-2/ عند المحدثين

* ممدوح حقي في كتابه "المثل المقارن" «المثل الجيد ما كان فيه التشبيه حياً متحركاً تتطرق فيه الحال التي نشأ عنها المثل على الواقعة التي يراد تمثيلها انطباقاً إلا يكن كلياً فهو قريب منها... وفي الكناية يكمن سر المثل وهو أسلوب من الكلام يدور على المعنى من باب الخلفي ليفاجئه ويكشفه أو يرمز إليه من بعيد رمزا لطيفاً...»

* أحمد أمين «الأمثال نوع من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكناية ولا تكاد تخلو منها أمة من الأمم، ومزية الأمثال أنها تتبع من كل طبقات الشعب وليست في ذلك كالشعر أو النثر الفني فإنهما لا ينبعان إلا من الطبقة الأرستقراطية في الأدب»⁶

2-3/ عند الغربيين

* يعرفه فريدريك زايالر في كتابه الأمثال الشعبية الألمانية: «هو القول الجاري على ألسنة الشعب الذي يتميز بطابع تعليمي وشكل أدبي مكتمل يسمو على أشكال التعبير المألوفة»⁷

* يعرفه ألكسندر كراب «يعبر في شكله الأساسي عن حقيقة مألوفة صيغت في أسلوب مختصر حتى يتداوله جمهور واسع من الناس»⁸

* دائرة المعارف الأمريكية: عرفت دائرة المعارف الأمريكية المثل بقولها «المثل جملة قصيرة مصيبة المعنى تستحضر بدقة الحقيقة الشائعة وتتولد أساسا في المجتمعات الأولى بأسلوب عامي غير أدبي، وتكون شكلا فولكلوريا في كل الأجيال»⁹

* دائرة المعارف الفرنسية «الأمثال أصداء التجربة، والمثل هو اختصار معبر في كلمات قليلة أصبح شعبيا»¹⁰

ملاحظة: كل من درس المثل أو حاول تحديده وقف عند هذه النقاط إجمالاً: الشيوخ والانتشار، الخبرة، البلاغة، الإيجاز، إصابة المعنى، الإيقاع الموسيقي.

3/ العلاقة بين المثل والحكاية أو القصة:

يرى البعض بأن المثل الشعبي تقطير لقصة أو حكاية ولا يمكن معرفة أو إدراك معناه إلا بعد معرفة القصة أو الحكاية التي يعبر المثل عن مضمونها ومعناها.

وقد حاول المؤلفون في الأمثال أن يربطوا بينها وبين القصص التي عادت إليها، أعني أن يذكروا لكل مثل قصة، مثل «وافق شن طبقة» فعند الرجوع إلى مجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني نجد القصة الأصل أو المورد أو الحادثة الأولى لهذا المثل، وكذلك الشأن للعديد من الأمثال «جزاء سمار»... «جنت على أهلها براقش» إلا أن هناك أمثال ليست لها قصة أو حكاية سابقة نتجت عنها مثل قولهم «غيض من فيض»

4/ صيغة وأسلوب المثل الشعبي الجزائري

يرى الأستاذ التلي بن الشيخ في كتابه منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري أن المثل الشعبي الجزائري يتحاشى أسلوب الوعظ والتوجيه والإكراه، تاركا الحرية للإنسان في أخذ العبرة والعظة كما يشاء.

كما يتجنب أسلوب الترغيب والترهيب الذي يعتمد القصاص الشعبي وذلك أن طريقة النقد في المثل الشعبي تعتمد على التلميح والإيحاء وقد يعرض المثل بموقف ما ولكنه يتحاشى التجريح والتعريض الساخر، ومن هذا المنظور يمكن القول بأن المثل لا يتخذ موقفا من الظواهر الاجتماعية التي يثيرها فإذا قيل «ما حك جلدك مثل ظفرك» فلا يعني هذا أن المثل قد اتخذ موقفا وإنما يقدم لنا نصيحة أو عبرة بأن الإنسان إذا لم يعمل بنفسه من أجل مصلحته فلا ينتظر من الآخرين القيام بذلك.¹¹

5/ المثل والتجربة الإنسانية

الأمثال عند كل قوم هي محصول خبرتهم ونتاج تجاربهم الإنسانية والحياتية نتيجة التأمل والتفكير وتقنين الظواهر الاجتماعية والسلوكية يستخلصها العقل من حياة الناس «والغاية من هذه الفلسفة هي العبرة التي تتمثل في الاستفادة من تجارب سابقة وهنا يأتي دور المثل الشعبي كتأكيد وترسيخ لتلك التجربة، وإن كان المثل لا يقف منها موقفا مضادا أو رافضا وإنما يترك للإنسان حرية الاستفادة من العبرة» والتقيد أو عدم التقيد بها.¹²

6/ خصائص المثل الشعبي الجزائري

- يمتاز المثل بالصياغة اللغوية المحكمة والاختصار في الكلمات ذات الدلالة المكثفة، سواء عن طريق الاستعارة أو المجاز.
- للمثل دور تثقيفي وتعليمي وتربوي لا يستهان به يهدي الإنسان إلى جادة الصواب ويوصله إلى بر الأمان.
- المثل مجهول القائل ولا يتداول اسم قائله ليظل منسوبا إلى العقل الجمعي، وإذا ما نسب لشخص ما فإن العامة لا تتداوله ما عدا ما ينسب إلى حكماء عرفوا برجاحة العقل وسعة المعرفة وحكمة التجربة.
- من خصائص المثل التعبير عن التناقض الذي يعيشه الإنسان ويعبر عنه وفقا لمزاجه.
- المثل أكثر ما يعبر عنه هو التجربة الفردية دون إغفال التجربة الجمعية. فهي بذلك تمثل خلاصة التجارب الحياتية ومحصلة الخبرات الشعبية.

- تتميز صورته اللغوية بجمال الوزن والإيقاع اللذان ينسجمان والحركة النفسية للمستمعين.
- الطابع الشعبي: هو كلمة الشعب التي أبدعتها العبرقية الشعبية في لحظة من اللحظات وهو مولود من رحم الشعب من كيانه الروحي ونبضه الفكري.
- كثيرا ما يرد في قالب الحكاية (قول على سبيل الحكاية).
- كثيرا ما يرد في قالب شعري شعبي خالص مثل:
لا يغرك نوار الدفلة *** في الواد كيف عامل الظلايل
ولا يغويك زين الطفلة *** حتى تشوف الفعايل
- كثيرا ما يتألف المثل الشعبي من جملتين متعارضتين أو فكرتين متناقضتين مثل: في الوجه مراية وفي الدفار مقص، الدابة جيفة ومصارنها حلال، ياكل الغلة ويسب الملة، لالة عدوة وحاجتها حلوة.
- كثيرا ما يستعمل صلة الموصول اللي بدل (الذي)، اللي زرهو مليح يحطب له الريح، اللي معندوش الزهر يلق لعظم في الرية، اللي خانوها يديها تقول بيا السحور، اللي باعك بفولة بيعو بقشورها، وهي صيغة أفراد تبين اهتمام المثل بالسلوك البشري.

الهوامش:

- ¹ ينظر: عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط1، ص 69، 70، 71.
- ² ينظر: نفس المرجع ص 70، 72، 73، 74.
- ³ ينظر: نفس المرجع ص 75، 76، 77.
- ⁴ أمينة فزاري: مناهج دراسات الأدب الشعبي، دار الكتاب الحديث، الجزائر، ط1، 1431هـ-2010م، ص 121-122.
- ⁵ ابن عبد ربه: العقد الفريد الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج1، 1955، ص 67.
- ⁶ أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1953، القاهرة، ص 61.
- ⁷ فريدريك زايلر، تقلا عن نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط3، د ت، ص 175.
- ⁸ ألكسندر هجرتي كراب: علم الفولكلور، ترجمة رشدي صالح، دار الكتاب العربي، 1967م، ص 235.
- ⁹ نقلا عن، طلال حرب، أولية النص، نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1419هـ-1999م، ص 146.
- ¹⁰ نقلا عن نفس المرجع، ص 147.
- ¹¹ التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، د ط، 1990، ص 179-180.
- ¹² نفس المرجع، ص 167.